إثنوغرافيا الاتصال: الأسس النظرية والمنهجية في ضوء نموذج ديل هايمز(SPEAKING)

تُعدّ إثنوغرافيا الاتصال من أهم المقاربات البحثية في علوم الاتصال والأنثروبولوجيا اللغوية، إذ تهدف إلى فهم التواصل الإنساني بوصفه ممارسة اجتماعية وثقافية تُنجز داخل سياقات محددة تحكمها قواعد ومعايير مشتركةK وقد مثّل هذا التوجه قطيعة نسبية مع الدراسات التقليدية التي ركزت على الرسالة أو النص بمعزل عن شروط إنتاجه وتلقيهK وفي هذا السياق، أسهم ديل هايمز إسهامًا محوريًا في بلورة هذا الحقل من خلال تطويره لمفهوم الكفاءة التواصلية ونموذج **SPEAKING**، الذي مكّن الباحثين من تحليل الفعل التواصلي في شموليته وربطه بالبنى الثقافية والاجتماعية.

أولًا: مفهوم إثنوغرافيا الاتصال ومحدداته

تشير إثنوغرافيا الاتصال إلى دراسة أنماط التواصل داخل جماعات بشرية محددة، مع التركيز على كيفية استخدام اللغة والرموز في الحياة اليومية. ولا تقتصر هذه المقاربة على تحليل الخطاب اللفظي، بل تمتد إلى دراسة الإيماءات، الصمت، الأدوار الاجتماعية، والعلاقات السلطوية التي تؤطر التفاعل.

وتقوم إثنوغرافيا الاتصال على جملة من المرتكزات الأساسية، من أهمها:

- اعتبار التواصل ممارسة اجتماعية ذات بعد ثقافي.
- دراسة الخطاب في سياق استعماله الطبيعي وليس في وضعيات مصطنعة.
- التركيز على وجهة نظر الفاعلين الاجتماعيين في تفسير المعنى.

ثانيًا: إثنوغرافيا الاتصال بين اللغة والثقافة

تنطلق إثنوغرافيا الاتصال من فرضية مفادها أن اللغة لا يمكن فصلها عن الثقافة، وأن كل ممارسة تواصلية تعكس منظومة قيم ومعايير اجتماعية. فاختيار الكلمات، أسلوب الخطاب، نبرة الصوت، وحتى الصمت، كلها عناصر تحمل دلالات ثقافية تُفهم داخل الجماعة التواصلية.

ومن هذا المنطلق، تهتم هذه المقاربة بدراسة ما يُعرف بـ"الأحداث التواصلية"، أي المواقف التي يتم فيها توظيف اللغة وفق قواعد ضمنية يتقاسمها أفراد الجماعة. ويُعد فهم هذه القواعد شرطًا أساسيًا لفهم المعنى الحقيقي للخطاب.

ثالثًا: ديل هايمز ومفهوم الكفاءة التواصلية

جاء إسهام ديل هايمز كرد فعل نقدي على التصور اللساني الذي حصر الكفاءة في المعرفة القواعدية للغة. فقد اعتبر هايمز أن المتكلم الكفء ليس فقط من يعرف قواعد اللغة، بل من يعرف متى يتكلم، ومع من، وبأي أسلوب، ولأي غاية.

وبذلك وسّع هايمز مفهوم الكفاءة ليشمل:

- المعرفة بالقواعد اللغوية.
- المعرفة بالقواعد الاجتماعية والثقافية للتواصل.
- القدرة على استعمال اللغة استعمالًا مناسبًا للسياق.

رابعًا: نموذج SPEAKING كأداة تحليل إثنوغرافي

اقترح ديل هايمز نموذج **SPEAKING** بوصفه إطارًا منهجيًا لتحليل المواقف التواصلية، ويتكون من ثمانية عناصر مترابطة:

- **(Setting and Scene) الإطار والمشهد** :المكان والزمان والظروف النفسية والاجتماعية المحيطة بالتفاعل.
- **(Participantsالمشاركون :)**المتكلمون، المستمعون، والجمهور المباشر أو غير المباشر.
- **(Endsالأهداف :)**الغايات والنتائج المتوخاة من الفعل التواصلي.
- **(Act Sequenceتسلسل الأفعال :)**تنظيم الخطاب وبنيته الداخلية.
- **(Keyالمفتاح :)**النبرة أو الطابع العاطفي للتواصل.
- **(Instrumentalities)الوسائط** :القنوات والوسائل اللغوية أو التقنية المستعملة.
- **(Normsالقواعد :)**المعايير التي تضبط السلوك التواصلي وتأويله.
- **(Genreالنوع الخطابي :)**الشكل أو الصنف الخطابي المستخدم.

ويمكّن هذا النموذج الباحث من تفكيك الفعل التواصلي وتحليله ضمن شبكة من العلاقات الثقافية والاجتماعية.

خامسًا: إثنوغرافيا الاتصال وتحليل الجمهور

في مجال دراسات الجمهور، أسهمت إثنوغرافيا الاتصال في إعادة الاعتبار للجمهور بوصفه فاعلًا اجتماعيًا نشطًا في عملية التواصل. فالجمهور لا يستقبل الرسائل الإعلامية بشكل آلي، بل يعيد تأويلها وتوظيفها وفق سياقاته الثقافية وخبراته الاجتماعية.

ويساعد نموذج SPEAKING على تحليل تفاعلات الجمهور داخل الفضاءات الإعلامية، سواء التقليدية أو الرقمية، من خلال دراسة أدوار المشاركين، طبيعة الخطاب، والقواعد التي تحكم التفاعل، خاصة في البيئات الرقمية التي تتسم بالتعدد والتداخل.

سادسًا: إثنوغرافيا الاتصال في السياق الرقمي

أفرز التحول الرقمي أنماطًا جديدة من التواصل تستدعي إعادة التفكير في أدوات التحليل الإثنوغرافي. فقد أصبحت الوسائط الرقمية فضاءات تواصلية قائمة بذاتها، لها قواعدها وأنواعها الخطابية الخاصة.

وفي هذا السياق، تتيح إثنوغرافيا الاتصال، بالاستناد إلى نموذجSPEAKING ، دراسة التفاعلات الرقمية من حيث:

- تعدد المشاركين وتداخل أدوارهم.
- تحوّل القواعد التواصلية بين الرسمي وغير الرسمي.
- إعادة تشكيل المعنى عبر التعليقات والمشاركات.

خاتمة

تؤكد إثنوغرافيا الاتصال، في ضوء إسهامات ديل هايمز، أن فهم التواصل لا يتحقق إلا عبر ربط الخطاب بسياقه الثقافي والاجتماعي. ويُعد نموذج SPEAKING أداة تحليلية فعالة لفهم تعقّد الممارسات التواصلية، خاصة في دراسات الجمهور والإعلام المعاصر، حيث تتداخل اللغة، الثقافة، والتقنية في إنتاج المعنى.